الأئمة الثلاثة والأصول التي بنيت عليها مذاهبهم: دراسة تحليلية

الدكتور محمد يونس*

Abstract:

"There are four madhabs of Sunni school of thought in Islam; the first is the Hanafi School which originated in Kufa, Iraq by the Imam Abu Hanifa.The Malaki School named after Malik Ibn Annas originated in Madina.the third school named after Imam Shaafi'ee and the fourth school is Hunbli which is named after Imam ahmad Hunbal.This article is an analytical study of fundamental principles of Fiqh of three great Imams (Imam Maalik, Imam Shaafiee, Imaam Ahmad bin Hunbal."

Key words: Shaafi'ee, Ahmad, Malik, Three Imams, Rules of Jurisprudence, Quran-o-Sunnat.

من نعمة الله—عز وجل- على الأمة الإسلامية علماؤها، وأعظم العلماء قاطبة أئمة أهل السنة والجماعة؛ فبهم نعرف أمور ديننا، ونعبد الله كما يحب، اشتهروا بالأمانة العلمية والصدق في النقل عن السلف الصالح، انتشرت مذاهبهم في مشارق الأرض ومغاربها، وأعطوا العلم مكانته اللائقة به، لم يتقربوا به إلى حاكم، ولم يكتموه عن الناس، صدعوا بالحق في وجوه السلاطين، ولم يخشوا في الله لومة لائم، فأوذي بعضهم بسبب ذلك، كما حدث مع الإمام مالك ووالي المدينة، ومع أحمد بن حنبل في فتنة خلق القرآن، فأردت أن أعطي فكرة عن الأئمة الثلاثة (مالك- الشافعي- أحمد بن حنبل) والأصول التي بنيت عليها مذاهبهم، ولم أتحدث عن المذهب الحنفي؛ لشيوعه في بلادنا بنغلاديش، فنحن- والحمد لله- نعبد الله على هذا المذهب، كما أنني أهملت- عمدا- المذهب الشيعي وفرقه المتنوعة؛ لأنني أرى أنها لا تتناسب مع مبادئ أهل السنة والجماعة- وذلك في مقالة متواضعة تحت عنوان "الأئمة الثلاثة والأصول التي بنيت عليها مذاهبهم: دراسة تحليلية" أسأل الله- العلي القدير- أن أكون قد ساهمت- ولو بجزء بسيط- في إبراز الأئمة الثلاثة وأصول مذاهبهم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

* الأستاذ المشارك بالقسم العربي، جامعة شيتاغونغ، بنغلاديش

الأئمة الثلاثة والأصول التي بنيت عليها مذاهبهم:

أولا: الإمام مالك بن أنس (رح) (۹۳ـ۱۷۹ھ)

هو الإمام، مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان [۱] بن حثيل، [۲] وكانا لإمام يكني أبا عبد الله، الإمام الحافظ فقيه الأمة، وإمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه ينسب المالكية، وكانا لإمام من أسرة مسلمة مثقفة. وأول من أسلم من آبائه أبو عامر، وكان تابعيا جليلا وعالما كبيرا، وإنه كان رجلا خالصا و وثيقا في علم الحديث، [۳] وكانت أمّها مثقفة وخادمة لأهلها، وهي العالية بنت شريك ابن عبد الرحمن الأزديه"، [۴] ولدالإمام بالمدينة المنورة عام ۹۳ھ الموافق ۷۱۲م على الأرجح، ونشأ بها، وحدث عن نافع والزهري وعامر بن عبد الله بن الزبير وغيرهم، وحدث عنه قوم لا يكادون يحصون منهم ابن المبارك وابن وهب وابن القاسم وغيرهم، ومع هذا لم يجلس للفتوى حتى شهد له سبعون من أهل العلم أنه أهل لذلك، قال الذهبي:" قال أبو مصعب: سمعت مالكا يقول: "ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك" [۵]

وقد كانت له منزلة كبيرة في الحديث والفقه، قال عنها الإمام الشافعي:"إذا ذُكر العلماء فمالك النجم، وقال أيضاً: "لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز "، و عن أشهب بن عبد العزيز قال رأيت أبا حنيفة بين يدي مالك كالصبي بين يدي أبيه، يقول الحافظ الذهبي: فهذا يدل على حسن أدب أبي حنيفة وتواضعه، مع كونه أسن من مالك بثلاث عشرة سنة، قال مالك: "قل رجل كنت أتعلم منه ومات حتى يجيئني ويستفتيني"، وقال ابن وهب: سمعت مناديا ينادي بالمدينة: ألا لا يفتي الناس إلاَ مالك بن أنس وابن أبي ذئب، وقال إسحاق بن إبراهيم: "إذا اجتمع الثوري ومالك والأوزاعي على أمر فهو سنة، وإن لم يكن فيه نص"، وقال عبد الرزاق في حديث: "يوشك الناس أن يضربوا أكباد الأبل في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة" [۶]: فكنا نرى أنه مالك [۷]

وكان - رحمه الله - يقدر العلم، وكان صلبا في دينه، بعيدا عن الأمراء والملوك، فقد وجه إليه الخليفة العباسي هارون الرشيد؛ ليأتيه فيحدثه، فقال الإمام مالك:" العلم يُؤتى، فقصد الرشيد منزله واستند إلى الجدار، فقال مالك: " يا أمير المؤمنين من إجلال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إجلال العلم، فجلس بين يديه، فحدثه [۸]، وفي هذا المعنى يقول طاش كبرى زاده:" بعث هارون الرشيد إلى مالك بن أنس يستحضره مجلسه؛ ليسمع منه إبناه الأمين والمأمون، فقال الإمام مالك:" أعز الله أمير المؤمنين! إن هذا العلم

منكم خرج, فإن أنتم أعززتموه عز, و إن أذللتموه ذلّ, و العلم يُؤتى و لا يأتي؛ فقال الخليفة:" صدقت", اخرجا إلى المسجد حتى تسمعا مع الناس, فقال مالك:" شريطة ألاَ يتخطيا رقاب الناس, ويجلسا حيث انتهى بهما المجلس, فحضرا بهذا الشرط. (۹)

وهكذا كان الإمام مالك قويَ الإيمان بالله, لا يهاب أحداً مهما علا قدره, جريئاً يصدع بالحق وإن أغضب ذوي النفوذ والسلطان, وقد أدى ذلك به إلى أن أوذي أذى شديداً, حتى ضربه جعفر بن سليمان والي المدينة بالسياط؛ لما نُسب إليه من أن البيعة لا تصح مع الإكراه, فغضب جعفر ودعا به وجرده وضربه بالسياط, ومُدت يده حتى انخلعت كتفه, فلم يزل بعد ذلك الضرب في علو ورفعة, وكأنما كانت السياط حلياً حُلي به.

وحكى أبو عبد الله الحميدي فقال:" حدث القعنبي قال:" دخلت على مالك بن أنس في مرضه الذي مات فيه, فسلمت عليه, ثم جلست فرأيته يبكي, فقلت: يا أبا عبد الله ما الذي يبكيك: فقال لي: يا ابن قعنب, وما لي لا أبكي ومن أحق بالبكاء مني والله لوددت أني ضربت لكل مسألة أفتيت فيها برأيي بسوط سوط, وقد كانت لي السعة فيما قد سبقت إليه, وليتني لم أفت بالرأي, وعن القعنبي—أيضاً- قال:" كنت عند ابن عيينة فبلغه نعي مالك, فحزن وقال: ماترك على ظهر الأرض مثله. (۱۰)

وفاته: إن الإمام رحمه الله تعالى تلبى دعوة ربه كانت لعشر مضت من ربيع الأول سنة ۱۷۹ هـ. وكان الإمام عاش جزءا كبيرا من آخر حياته من سلس البول, فإنه دفن بالبقيع بجوار إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم. (۱۱)

مؤلفاته: كان الإمام مالك صاحب العلوم الإسلامية, ولاسيما في الحديث والفقه, وله مهارة كاملة في علم الشريعة والدين, شاهدتها مؤلفاته التي ألّفها في حياته وما ألف عنه بعد ذلك, وهي كثيرة. وورد أن أبا جعفر المنصور (۱۳۶-۱۵۸م) قال له:" يا أبا عبد الله ضع هذا العلم, ودون كتاباً وجنب فيه شدائد عبد الله بن عمر رضي الله عنهما, ورخص عبد الله بن عباس رضي الله عنهما, وشواذ بن مسعود رضي الله عنه, واقصد أواسط الأمور وما أجمع عليه الصحابة والأئمة, فصنف "الموطأ" بإذن الخليفة أبي جعفر المنصور العباسي ومشورته حسب اقتضاء الدواعي الدينية و الاجتماعية والسياسية في ذلك الزمان, مشتملا على أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة وفتاوي التابعين, (۱۲) هذا أوّل كتاب مدون في الحديث. قصد فيه جمع الصحيح, لكن الصحيح عنده لا على اصطلاح أهل الحديث؛ لأنه يرى المراسيل صحيحة" وكتاب في "المسائل" و "تفسير غريب القرآن" و له كتب أخرى مثل "كتاب المناسك" و "كتاب الاقضية" ذكرها ابن

فرحون وغيره. (۱۳)

و مع كثرة ما كتب الإمام مالك, فلم يبق منها إلاّ هذا الكتاب القيم (الموطأ)؛ و لجلالة هذا الكتاب في الحديث و الفقه أراد الخليفة المنصور, ثم المهدي, ثم الرشيد حمل الناس عليه؛ ليكون مرجعالهم في هذا الباب، إلاّ أن الإمام مالك رفض ذلك. (۱۴)

الأصول التي بني عليها المذهب المالكي

ذكره القاضي عياض الأصول التي بني عليها المذهب المالكي, و ذلك بتقديم كتاب الله على ترتيب وضوح أدلته من نصوصه, ثم ظواهره, ثم مفهوماته, ثم كذلك سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ترتيب متواترها ومشهورها، ثم ترتيب نصوصها وظواهرها ومفهومها على ماتقدم في الكتاب, ثم الإجماع عند عدم الكتاب ومتواتر السنة, وعند عدم هذه الأصول يأتي القياس عليها والاستنباط منها؛ إذ كتاب الله مقطوع به وكذلك ما تواتر من سنة نبيه, وكذلك النص مقطوع به فوجب تقديم ذلك كله, ثم الظواهر, ثم المفهوم منها لدخول الاحتمال في معناها, ثم أخبار الآحاد يجب العمل بها والرجوع إليها عند عدم الكتاب ومتواتر السنة, وهي مقدمة على القياس؛ لإجماع الصحابة على الأصلين, وتركهم نظر أنفسهم متى بلغهم خبر الثقة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وامتثالهم مقتضاه دون إخلال منهم في ذلك (۱۵)

ثم يقول القاضي عياض: وأنت إذا نظرت لأول وهلة.. وجدت مالكاً -رحمه الله تعالى- ناهجاً في هذه الأصول مناهجها، مرتباً لها مراتبها ومدارجها, مقدماً كتاب الله عز وجل, ومرتباً له على الآثار، ثم مقدماً لها على القياس والاعتبار، تاركاً منها ما لم يتحمله عنده الثقات العارفون بما تحملوه, أو ما وجد الجمهور الجم الغفير من أهل المدينة قد عملوا بغيره وخالفوه, ثم كان من وقوفه عن المشكلات, وتحريه عن الكلام في المعوصات ما سلك به سبيل السلف الصالح, حيث كان يرجح الاتباع ويكره الابتداع والخروج عن سنن الماضيين (۱۶)

من هذا يتبين لنا أن الإمام مالك بن أنس كانت له درجة عالية ومكانة رفيعة عند الله وعند الناس. وأنه أسس مذهبه على القرآن الكريم بنصوصه وظواهره و مفهوماته, ثم سنة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كذلك, ثم بعد هذين الأصلين يأتي الإجماع, ثم القياس, إلاّ أنه لا يجعل للقياس القيمة التي يجعلها له الأحناف, وكذلك يجعل لعمل أهل المدينة أهمية كبرى, حتى أنه ربما يترك الحديث الذي لا يؤيده عمل أهل المدينة, وكذلك كان يعمل بدليل آخر سماه المصالح المرسلة. (۱۷)

ثانيا: الإمام الشافعي (رح) (١٥٠ـ٢٠٤هـ/٧٦٧ـ٨١٩م)

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف بن قصى بن كلاب, القرشي, المكي, نسيب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وناصر سنته, أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة, وإليه يُنسب الشافعية كافة, أمه أزدية, ولد بغزة من أعمال عسقلان سنة ١٥٠ هـ/٧٦٧م, وهو العام الذي توفي فيه الإمام أبو حنيفة, فما لبس أن حمل إلى مكة بعد فطامه, فنشأ بها و حفظ القرآن وهو صغير, [١٨] وقد برع في الشعر واللغة وأيام العرب, وشاء الله له أن يوجهه لطلب الحديث والفقه و تعميق القرآن, فنال من ذلك غايته, ولم يبلغ العشرين من عمره, فحفظ موطأ الإمام مالك وعرضه عليه, ثم أذن له في الفتوى شيخه في الفقه مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة حين ذاك, وهو ابن عشرين أو خمس عشرة سنة, وروى عن مالك ومسلم بن خالد وابن عيينة وإبراهيم بن سعيد وجماعة غيرهم, وروى عنه الإمام أحمد بن حنبل والحميدي وأبو الطاهر بن السراج والبويطي والمزني وجماعة غيرهم, وكان حافظاً, حفظ الموطأ في تسع ليال وقيل: في ثلاث ليال, وخرج عن مكة ولزم هذيلاً فتعلم كلامها وكانت أفصح العرب, فبقي فيهم مدة راحلاً برحيلهم ونازلاً بنزولهم, فلما رجع إلى مكة جعل ينشد الأشعار ويذكر الآداب والأخبار وأيام العرب, فمر به رجل من الزبيديين فقال له: "يا أبا عبد الله عز علي أن لا يكون مع هذه الفصاحة والذكاء فقه, فتكون قد سدت أهل زمانك؟ فقال: ومن بقي يُقصد؟ فقال له: هذا مالك سيد المسلمين يومئذ؟ فعاد إلى الموطأ فحفظه, ورحل إلى مالك فأخذ عنه الموطأ وكان مالك يثني على فهمه وحفظه, ووصله بهدية جزيلة لما رحل عنه, وكان الشافعي يقول: مالك معلمي وأستاذي, ومنه تعلمنا العلم, وما أحد أمنَ علي من مالك, وجعلت مالكاً حجة فيما بيني وبين الله تعالى. [١٩] اتهم الشافعي بالتشيع أيام الرشيد, فحمل إلى العراق سنة ١٨٤ هـ للتحقيق معه, ولكنه أمكنه أن يدفع التهمة عن نفسه, فأطلقه الخليفة ووصله, وهناك أفاد واستفاد, وأخذ عن الإمام محمد بن الحسن ما شاء الله من علمه, ورحل عنه بحمل بعير من الكتب, ثم عاد إلى بغداد سنة ١٩٥ هـ وأقام فيها عامين، كتب فيهما المؤلفات التي حوت مذهبه القديم, ثم عاد إلى مكة ليرحل إلى بغداد مرة أخرى سنة 198هـ, ومن العراق سافر إلى مصر؛ حيث أملى على تلاميذه المصريين كتبه, التي حوت مذهبه الجديد. [٢٠]

ثناء العلماء عليه

كان الشافعي كثير المناقب، اجتمعت فيه من العلوم بكتاب الله وسنة الرسول -

صلى الله عليه وسلم- وكلام الصحابة- رضي الله عنهم- وآثارهم, واختلاف أقاويل العلماء وغير ذلك مالم يجتمع في غيره, حتى قال الإمام أحمد:" ما عرفت ناسخ الحديث ومنسوخه حتى جالست الشافعي, وما أحد يحمل محبرة من أصحاب الحديث إلا وللشافعي عليه منة " , وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: " ما رأيت رجلا قط أكمل من الشافعي" وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: أي رجل كان الشافعي فإني سمعتك تكثر من الدعاء له, فقال:"يا بني, كان الشافعي للعلم كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن, هل لهذين من خلف أو عنهما من عوض؟ وقال أحمد: ما بت منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي وأستغفر له, والشافعي أول من تكلم في أصول الفقه وهو الذي استنبطه, كان منقطع القرين في حياته, فلما مضى لسبيله لم يعتض منه ", وكان الزعفراني يقول: " كان أصحاب الحديث رقودا حتى جاء الشافعي فأيقظهم فتيقظوا ", وقال إسحاق بن راهويه:" قال لي أحمد بن حنبل بمكة: تعال حتى أريك رجلاً لم ترعيناك مثله, فأقامني على الشافعي, وقال ابن معين لصالح بن أحمد بن حنبل : أما يستحي أبوك ؟ رأيته مع الشافعي, والشافعي راكب وهو راجل ورأيته وقد أخذ بركابه! فنقلت هذا لأبي فقال لي: قل له: إن أردت أن تتفقه فخذ بركابه الآخر, وقد بلغ الإمام الشافعي من المنزلة في شخصه وأخلاقه وعلمه ما جعل ابن خلكان يقول: "اتفق العلماء قاطبة من أهل الحديث والفقه والأصول واللغة والنحو وغير ذلك على ثقته وأمانته وعدالته وورعه ونزاهة عرضه وعفة نفسه وحسن سيرته وعلو قدره وسخائه", ومع كل هذا كان حسن المناظرة, قال يونس الصدفي: ما رأيت أعقل من الشافعي, ناظرته يوما في مسألة, ثم افترقنا ولقيني , فأخذ بيدي, ثم قال:" يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخوانا وإن لم نتفق في مسألة" بالجملة فإن مناقب الإمام الشافعي أكثر من أن تعد, فقد أجملها الذهبي بقوله:"إن مناقب الشافعي أكثر من أن يحتملها هذا المختصر."(۲۱)

وفاته: كانت وفاة الإمام الشافعي أول شعبان سنة ۲۰۴ هـ بمصر ـ وهو ابن ۵۴ سنة, وكان قد انتقل إليها سنة ۱۹۹ هـ, ودفن بعد العصر من يومه بالقرافة الصغرى, وقبره يزار بها بالقرب من المقطم-رضي الله عنه.(۲۲)

مصنفاته: كانالإمام مالكصاحب العلوم الإسلامية, ولاسيما في الفقه وأصوله, وله مهارة كاملة في علم الشريعة والدين, وله تصانيف كثيرة. كتب عبد الرحمن بن مهدي إلى الشافعي, وهو شاب أن يضع له كتابا فيه معاني القرآن, ويجمع قبول الأخبار, وحجة الإجماع, وبيان الناسخ والمنسوخ, فوضع له كتاب " الرسالة " , ويقول ابن خلدون: "

فكان الشافعي أول من كتب في أصول الفقه " وله تصانيف كثيرة أخرى،[۲۳] من أشهرها: كتاب (الأم) في الفقه سبع مجلدات, (الكتاب الجديد) و (الكتاب القديم) و (أحكام القرآن) و (السنن) و (اختلاف الحديث) و (فضائل قريش) و (المواريث) و (إثبات النبوة) و (آمالي الكبير في الفقه) و (مسئلة الخنثى) و (آداب القاضي)و (الإمامة) و (الحدود)وغير ذلك.[۲۴]

الأصول التي بني عليها المذهب الشافعي

كان الإمام الشافعي أول من كتب في أصول الفقه, بتصنيفه كتاب (الرسالة), وبذلك نجد أنه أسس المذهب وأصوله مدونة في هذا الكتاب, وتظهر واضحة جليه بالتطبيق في الفروع في كتاب (الأم), حيث ورد فيه ما نصه: " بنى الإمام الشافعي مذهبه على الكتاب والسنة والإجماع والقياس, ولم يجنح إلى الاستحسان الذي ذهب إليه الإمام أبو حنيفة " و قال في موضع آخر: " العلم طبقات شتى الأولى- الكتاب والسنة إذا ثبتت السنة ثم, الثانية- الإجماع, والثالثة- أن يقول بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولا مخالف لهم, والرابعة اختلاف أصحاب النبي- صلى الله عليه وسلم- في ذلك, الخامسة القياس على بعض الطبقات, وإنما يؤخذ العلم من أعلى " قال الشافعي: " الأصل قرآن أو سنة , فإن لم يكن فقياس عليهما , وإذا صح الحديث فهو سنة, والإجماع أكبر من الحديث المنفرد, والحديث على ظاهره, وإذا احتمل الحديث معاني فما أشبه ظاهره, وليس المنقطع بشئ ما عدا منقطع ابن المسيب " فالإمام الشافعي يحتج بظواهر القرآن, حتى يقوم دليل على أن المراد بها غير ظاهرها, وبعد ذلك السنة, وقد دافع دفاعاً شديداً عن العمل بخبر الواحد ما دام راويه ثقة ضابطاً, وما دام الحديث متصلاً بالنبي- صلى الله عليه وسلم- ولم يشترط ما اشترطه الإمام أبو حنيفة من شهرة الحديث, ولا ما اشترطه الإمام مالك من عدم مخالفته عمل أهل المدينة, و إنما اشترط الصحة و الاتصال, ولم يكن يحتج بالمرسل[۲۵] إلاَ مرسل سعيد بن المسيب؛[۲۶] ولهذا سماه أهل بغداد (ناصر السنة), فهو ينظر إلى السنة الصحيحة نظره إلى القرآن, يرى أن كلاً منهما واجب الاتباع؛ ولذلك اكتسب الإمام الشافعي تأييد كبيرا في عصره , وكان لهذا أكبر الأثر في نصرة مذهبه وانتشاره, ثم يعمل بالإجماع, فإذا لم يكن هناك دليل منصوص عمد إلى القياس, فعمل به بشرط أن يكون القياس مستندا إلى نص, ورد ما سماه العراقيون بـ(الاستحسان) وقال:" من استحسن فقد شرَع,[۲۷] بل صنف في ذلك كتاباً سماه (إبطال الاستحسان), ورد كذلك ما سماه المالكية المصلحة المرسلة, وقد جمع الإمام الشافعي بين فقه أهل الحجاز

و فقه أهل العراق مع فصاحة اللسان و قوة الحجة و حسن المناظرة؛ مما جعله أهلاً أن ينفرد بالتميز, و لا عجب بعد ذلك أن يقبل الناس على انتحال طريقته و أن ينتشر مذهبه دون أن يعتمد على تأييد حاكم أو نفوذ سلطان.(۲۸)

تدوين المذهب

مما يميز هذا المذهب عن المذهب المالكي أنه تم تدوينه و نشره عن طريق كتب كتبها الإمام الشافعي بنفسه, سواء في ذلك المذهب القديم بالعراق, أو المذهب الجديد في مصر, و أهم هذه الكتب هي:

۱۔ كتاب (الرسالة) في أصول الفقه, وهي رسالة أرسلها الإمام الشافعي, عندما طلب منه شيخه عبد الرحمن بن مهدي, أن يضع له كتاباً في معاني القرآن, وقبول الأخبار وبيان الناسخ و المنسوخ, فوضع الإمام الشافعي هذا الكتاب, و أرسله إلى شيخه عبد الرحمن بن مهدي وسماه (الرسالة), وقد طبع مع الجزء الأول من كتاب الأم عام ۱۳۲۱ هـ, وقام بعد ذلك المرحوم أحمد شاكر بنشرها مستقلة مع تعليقات قيمة, بمطبعة الحلبي بالقاهرة عام ۱۳۵۷ هـ.(۲۹)

۲۔ كتاب (الأم) وهو الكتاب الفذ, من حيث أسلوبه و دقة تعبيره, وعرض آراء العلماء المخالفين, وقوة المناظرة معهم, فهو يعد خير تمثيل لحياة الفقه في عصره, وهذا الكتاب, وإن كان قد وقع الشك في نسبته للإمام الشافعي,(۳۰) فهو يشمل أبواب الفقه كلها, وقد حوى هذا الكتاب كثيراً من الكتب التي كتبها الإمام الشافعي, ومنها: كتاب (جماع العلم) وهو انتصار للعمل بالسنة, و كتاب (إبطال الاستحسان), وقد رد فيه على فقهاء الأحناف, وكتاب (الرد على محمد بن الحسن) , و كتاب (اختلاف الحديث) وكتاب (أحكام القرآن) إلى غير ذلك من الكتب التي حواها كتاب الأم.(۳۱)

ثالثا: الإمام أحمد بن حنبل (رح) (۱۶۴ـ۲۴۱ھ/۷۸۰ـ۸۵۵م)

هو الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني, إمام المذهب الحنبلي, وأحد الائمة الأربعة عند أهل السنة, أصله من مرو, خرجت أمه من مرو وهي حامل به, فولدته في بغداد, في شهر ربيع الأول سنة ۱۶۴ هـ الموافق ۷۸۰م, وقيل: إنه ولد بمرو, وحمل إلى بغداد وهو رضيع, فنشأ منكبا على طلب العلم وسافر في سبيله أسفارا كبيرة إلى الكوفة و البصرة ومكة و المدينة و اليمن و الشام وغيرها من البلاد, و استمع الحديث لأول

مرة من الإمام الحسينفي سنة ۱۷۹ هـ.[۳۲] كان من أصحاب الإمام الشافعي - رضي الله تعالى عنهما - وخواصه، ولم يزل مصاحبه, إلى أن ارتحل الشافعي إلى مصر, أخذ عن إبراهيم بن سعد وسفيان بن عيينة, وأخذ عنه الحديث جماعة من الأماثل, منهم محمد بن إسماعيل البخاري, ومسلم بن الحجاج النيسابوري وغيرهم, ولم يكن في آخر عصره مثله في العلم والورع وقد بلغ من حفظه وجلالته في العلم أن قال الإمام الشافعي في حقه:" خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل, وقال عنه إبراهيم الحربى:" رأيت أحمد كأن الله قد جمع له علم الأولين والآخرين" قال عنه الحافظ الذهبي:" كان إماماً في الحديث وضروبه, إماماً في الفقه ودقائقه, إماماً في السنة وطرائقها, إماماً في الورع وغوامضه, إماماً في الزهد حقائقه, وقال على بن المدينى:" إن الله أيد هذا الدين بأبى بكر الصديق يوم الردة, وبأحمد بن حنبل يوم المحنة, وقال بن سلام:" انتهى العلم إلى أربعة, أفقههم أحمد"[۳۳]

ومن يتعرض لتاريخ الإمام أحمد لا يسعه أن يغفل عن ما كان من محنته أيام العباسيين, ذلك أن الخليفة المعتصم أراد أن يحمله على القول بخلق القرآن إلاَ أن الإمام أصرَ على قوله:" أن القرآن كلام الله غير مخلوق,[۳۴] باعتباره كلام الله—عز وجل—فأحضر له الفقهاء والقضاة فناظروه فلم يجب فضُرب بالسياط ضرباً شديداً ليرجع عن رأيه, وحُبس وهو مصَر على الامتناع, وذلك في العشر الأواخر من شهر رمضان, سنة ۲۲۰ هـ, وكانت مدة حبسه إلى أن خُلي عنه: ثمانية وعشرين شهراً, وبقي إلى أن مات المعتصم, فلما ولي الواثق منعه من الخروج من داره, إلى أن أخرجه المتوكل, وأكرمه ورفع عنه المحنة, ومكث مدة لا يولي أحداً إلا بمشورته۔[۳۵]

وفاته: كانت وفاة الإمام أحمد صباح نهار الجمعة, لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول, سنة ۲۴۱ هـ الموافق ۸۵۵م ببغداد, ودفن بمقبرة باب حرب, وقبره مشهور بها يزار-رحمه الله تعالى.

مصنفاته: وقد ترك للأمة ميراثاً عظيماً من الكتب و المصنفات التي عمُرت بها المكتبات الإسلامية في الشرق و الغرب, من هذه أهمها:(المسند), وله كتب في (التاريخ) و (الناسخ والمنسوخ) و (الرد على الجهمية) و (طاعة الرسول) و (التفسير) و (فضائل الصحابة) و (المسائل) و (العلل والرجال) و (الفرائض) و (الزهد) و (الأشربة) و (الإيمان) و (الفرائض) وغير ذلك.[۳۶]

الأصول التي بني عليها المذهب الحنبلي

لا تكاد تختلف أصول مذهب الإمام أحمد عن أصول المذهب الشافعي؛ لأنه تفقه عليه, وقد بيَن الإمام ابن القيم في أعلام الموقعين أن فتاوى الإمام أحمد مبنية على الأصول الآتية:

أحدها: النصوص من القرآن والسنة, فإذا وجُد النص أفتى بموجبه, ولم يلتفت إلى ما خالفه, ولا من خالفه كائناً من كان, ولهذا لم يلتفت إلى قول معاذ, ومعاوية -رضي الله عنهما- في توريث المسلم من الكافر؛ لصحة حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال "لا يتوارث أهل ملتين شتى", (٣٧) وكذلك لم يلتفت إلى قول علي وعثمان وطلحة وأبي بن كعب -رضي الله عنهم- في الغسل من الإكسال؛ لصحة حديث السيدة العائشة -رضي الله عنها- قالت "إذا جاوز الختانُ الختان فقد وجب الغسل, فعلته أنا ورسول الله فاغتسلنا" (٣٨) ولم يكن يقدم على الحديث الصحيح عملاً ولا رأياً ولا قياساً ولا رأي صحابي ولا عدم العلم بالمخالف - الذي يسميه الناس إجماعاً - ويقدمونه على الحديث الصحيح, وقد كذَب أحمد من ادعى الإجماع، ولم يُسغ تقديمه على الحديث الصحيح. (٣٩)

ثانيها: ما أفتى به الصحابة, فإنه إذا وجد لبعضهم فتوى لا يُعرف له مخالف منهم فيها لم يعدها إلى غيرها, ولم يعد ذلك إجماعا, بل من ورعه يقول: "لا أعلم شيئاً يدفعه" وإذا وجد الإمام أحمد هذا النوع عن الصحابة لم يقدم عليه عملاً ولا رأياً ولا قياساً.

ثالثها: إذا اختلف الصحابة تخير من أقوالهم ما كان أقربها إلى الكتاب والسنة, ولم يخرج عن أقوالهم فإن لم يتبين له موافقة أحد الأقوال حكى الخلاف ولم يجزم بقول, فقد سئل الإمام أحمد عن الرجل يكون في قومه فيسأل عن الشئ فيه اختلاف قال: "يفتي بما وافق الكتاب والسنة, وما لم يوافق الكتاب والسنة أمسك عنه.

رابعها: الأخذ بالحديث المرسل والحديث الضعيف مرجحاً له على القياس, فإذا لم يكن في الباب أثر يدفعه, ولا قول صاحبٍ, ولا إجماع على خلافه كان العمل به أولى من القياس, وليس أحد من الأئمة إلَا وهو موافقه على هذا الأصل من حيث الجملة.

خامسها: القياس للضرورة, فإذا لم يكن عند الإمام أحمد في المسألة نص ولا قول الصحابة أو واحد منهم ولا أثر مرسل أو ضعيف عدل إلى القياس فاستعمله للضرورة. (٤٠)

فهذه أصول فتاوى الإمام أحمد, وعليها مدار مذهبه, وقد يتوقف في الفتوى؛ لتعارض الأدلة عنده, أو لاختلاف الصحابة فيها, أو لعدم اطلاعه فيها على أثر أو قول

صحابي أو تابعي, وكان شديد الكراهة والمنع للإفتاء في مسألة ليس فيها أثر عن السلف, وكان يُسوَغُ استفتاء فقهاء الحديث ويدل عليهم, ويمنع من استفتاء من يعرض عن الحديث, ومن ذلك يتبين أن الإمام أحمد رجل حديث وأثر أكثر منه رجل فقه وقياس؛ ولهذا عده ابن النديم في فقهاء المحدثين لا في الفقهاء بإطلاق, وحسبنا أن يقدم الحديث أو الأثر ولو مرسلاً أو ضعيفاً متى صح سنده عنده, على الرأي أو القياس, بل يقدم عليه قول الصحابي أيضاً مع أن هذا لم يكن يعمله الصحابة -رضي الله عنهم- أنفسهم.(۴۱)

تدوين المذهب ونشره

لم يكتب الإمام أحمد فقهه, كما كتب الإمام الشافعي فقهه, بل إنه كان ينهي عن كتابته؛ لأنه كان يرى ألّا يدوَن إلا الكتاب والسنة, حتى لا ينسى الناس الرجوع إليهما في معرفة الأحكام, وإذا وجدت له كتابات في بعض المسائل الفقهية, فهي مذكرات خاصة به لم يعمل على نشرها, ولم يسمح لأحد بنقلها؛ ولذلك لم يدون الإمام أحمد إلا كتابه (المسند) الذي جمع فيه نحو أربعين ألف حديث, وقد شملت هذه الأحاديث مسائل الفقه وأبوابه, وإن لم يكن مرتباً عليها, وهذا الكتاب أصل كبير لأصحاب الحديث انتُقي من حديث كثير ومسموعات وافرة, فجعله إماماً ومعتمداً, وعند التنازع ملجأ ومستنداً, ولم يُخرَج إلّا عمن ثبت صدقه وديانته, دون من طُعن في أمانته.(۴۲)

الخاتمة

بالنظر في كل ماسبق يتبين لنا أن معرفة الأئمة الثلاثة وأصول مذاهبهم أمر مهم للمسلم, وأن المذهب المالكي بنيت أصوله على تقديم كتاب الله, ثم سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-, ثم الإجماع ثم القياس عليها والاستنباط منها, وأن المذهب الشافعي بني على الكتاب والسنة والإجماع والقياس, ولم يجنح إلى الاستحسان الذي ذهب إليه الإمام أبو حنيفة", ولم يشترط ما اشترطه الإمام أبو حنيفة من شهرة الحديث, وما اشترطه الإمام مالك من عدم مخالفته عمل أهل المدينة, وإنما شرط الصحة والاتصال, ولا تكاد تختلف أصول مذهب الإمام أحمد عن أصول المذهب الشافعي؛ لأنه تفقه عليه, ففتاوه مبنية على النصوص من القرآن والسنة, وما أفتى به الصحابة, ثم الأخذ بالحديث المرسل والحديث الضعيف مرجحاً له على القياس, فإذا لم يكن في الباب أثر يدفعه, كان العمل به أولى من القياس, وأخيراً أخذ بالقياس عند الضرورة.

حوالہ جات

۱۔ اختاره ابن الفرحون، وقال غيره: الحارث بن عثمان- راجع- دائرة المعارف الإسلامية (الأردية)، ط1، (بنجاب: 1405هـ)، 372/18.

۲۔ قيل خثيل، نفس المرجع.

۳۔ المعارف- عبداللہ ابن مسلم ابن قتيبة، (مصر: دار الكتب، 1960م)، ص498.

۴۔ جمهرة أنساب العرب - علي ابن أحمد ابن حزم الأندلسي، (بيروت : دار الكتب العلمية، 1983م)، ص436.

۵۔ تذكرة الحفاظ- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1419هـ-1998م)، ج1/207.

۶۔ أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع- المستدرك- ت: مصطفى عبد القادر عطا ج 297/1 وقال: صحيح على شرط مسلم.

۷۔ تذكرة الحفاظ- الحافظ الذهبي، مرجع سابق، ج 207/1.

۸۔ الأعلام- خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي، (بيروت: دار العلم للملايين، ط15، مايو 2002م) ج257/5.

۹۔ مفتاح السعادة ومصباح السيادة- طاش كبرى زاده (بيروت: دار المعرفة، ط2، د.ت)، ج86/2.

۱۰۔ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس- محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الأزدي الميورقي الحَمِيدي أبو عبد الله بن أبي نصر، (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والنشر، 1966م)، ج124/1.

۱۱۔ تاريخ المذاهب الإسلامية، أبو زهرة، (القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت)، ص3؛ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان- أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان، ت: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، د.ت)، ج135/4.

۱۲۔ الحديث والمحدثون، أبو زهرة، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1984م)، ص246.

۱۳۔ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب- إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، ت: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، (القاهرة: دار التراث للطبع والنشر، د. ت)، ج14/1.

۱۴۔ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء- أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، (القاهرة: دار السعادة- 1394هـ-1974م)، ج116/3.

۱۵۔ ترتيب المدارك وتقريب المسالك- أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي- ت:عبدالقادر الصحراوي،(القاهرة:دار المعارف،ط1،1966-1970م)، ج1/22.

۱۶۔ المرجع السابق-نفس الصفحة.

۱۷۔ المصالح المرسلة: المصالح التي لم يشهد لها أصل معين من أصول الشرع بالاعتبار أو الإهدار, أو ما سكت الشرع عن اعتباره أو إهداره أصول الفقه والقواعد الفقهية, ينظر: البحر المحيط في أصول الفقه- أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي-(بيروت،:دار الكتبي، ط1، 1414هـ-1994م)، ج7/350.

۱۸۔ ذكر ابن كثير، حافظ إمام الدين إسماعيل في كتابه "البدايه والنهاية""قرأ القرآن وهو سبع سنين وحفظ الموطأ وهو ابن عشر وافتى وهو ابن خمس عشرة سنة"- (بيروت: دار الفكر، 1982م، مج10،)، ص 251-52.

۱۹۔ تذكرة الحفاظ-لحافظ الذهبي، مرجع سابق، ج 1/361.

۲۰۔ تاريخ التشريع الإسلامي للشيخ محمد الخضري، (بيروت : دار المعرفة، ط 2، 1997م)، ص 157.

۲۱۔ سير أعلام النبلاء- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي- ت: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط- (بيروت: مؤسسة الرسالة،د.ت)، ج10/5.

۲۲۔ طبقات الفقهاء- أبو اسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي- هذبهُ: محمد بن مكرم ابن منظور ،ت:إحسان عباس، (بيروت: دار الرائد العربي، د.ت) ج 1/72.

۲۳۔ يوجد 112 أسماء الكتب من تصانيفه في كتاب "الفهرست" لابن نديم—الفهرست- (بيروت: مكتبة الخياط، 1872م)، ص 210.

۲۴۔ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين- إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط2-1984م)، ج 1/448.

۲۵۔ الحديث المرسل عند جمهور المحدثين هو : ما ترك التابعي فيه ذكر الواسطة بينه وبين رسول الله -صلى الله عليه وسلم-, وعند الأصوليين : المرسل قول من لم يلق النبي صلى الله عليه وسلم : قال رسول الله - على الله عليه وسلم - سواء التابعي أم تابع التابعي , فتعبير الأصوليين أعم . ينظر: المختصر في أصول الحديث- علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، ت:علي زوين (الرياض:مكتبة الرشد، د.ت)، ج 1/4.

۲۶۔ سعيد بن المسيّب بن حزن القرشي المخزومي المدني، عالم أهل المدينة بلا مدافعة، وُلد في خلافة عمر لأربع مضين منها، وتوفيّ سنة أربع وتسعين للهجرة، وقيل: وُلد لسنتين من خلافة عمر. انظر: الوافي بالوفيات- صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي- ت: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط 3، (بيروت: دار إحياء التراث، 1420هـ-

2000م)، ج5/83.

۲۷۔ الأحكام في أصول الأحكام - علي بن محمد الآمدي - علق عليه الشيخ عبد الرازق العفيفي، (الرياض: مؤسسة النور، ط 1/1387هـ)، ج1، ص33.

۲۸۔ يراجع الأم للإمام محمد بن إدريس الشافعي مع مختصر المزني، (القاهرة: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 1947م)، ج1/13، ج7/280.

۲۹۔ معجم المطبوعات العربية والمعربة، يوسف بن إليان بن موسى سركيس (ت 1351هـ) (مصر: مطبعة سركيس، 1346هـ-1928م)، ج1/469.

۳۰۔ نسبه الإمام الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) إلى البويطي، ينظر: إحياء علوم الدين- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (بيروت: دار المعرفة، د.ت)، ج2/36.

۳۱۔ كتاب الأم للإمام محمد بن إدريس الشافعي مع مختصر المزني، مرجع سابق، ج1/13.

۳۲۔ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد الإصفهاني، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1988م)، ج9، ص162.

۳۳۔ طبقات الحنابلة، أبو الحسين ابن أبي يعلى، محمد بن محمد- ت: محمد حامد الفقي، (بيروت: دار المعرفة، د.ت) ج1/2.

۳۴۔ البدايه والنهاية، ابن كثير، مج10، المرجع السابق، ص327.

۳۵۔ الأعلام- لخير الدين الزركلي، مرجع سابق، ج1/203..

۳۶۔ الأعلام لخير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج1/203؛ الفهرست لإبن نديم، المرجع السابق، ص229.

۳۷۔ السنن-ابن ماجة، (أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني)-ت: شعيب الأرنؤوط-عادل مرشد -محمَّد كامل قره بللي-عَبد اللّطيف حرز الله- ط4، (بيروت: دار المعرفة)، ج8/212.

۳۸۔ الحديث رواه ابن ماجة في سننه ج2/260.

۳۹۔ الإمام مالك (رح) و موقفه في التشريع الإسلامي (البنجالة)- الدكتور ابو القاسم محمد عبد القادر- (داكا: المؤسسة الإسلامية بنغلاديش، 2004م)، ص183.

۴۰۔ اعلام الموقعين عن رب العالمين- محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية- ت: محمد عبد السلام إبراهيم، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت)، ج1/35 ؛الإمام مالك (رح) و موقفه في التشريع الإسلامي (البنجالة)- مرجع سابق، ص183.

۴۱۔ الفهرست- أبو الفرج مِحمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي المعتزلي الشيعي المعروف بابن النديم- ت: إبراهيم رمضان، (بيروت: دار المعرفة، د.ت)، ج1/281.

۴۲۔ تاريخ المذاهب الإسلامية- الإمام محمد أبو زهرة، (القاهرة: دار الفكر العربي، ط2، 2009م)، ص526.